في رياض الشعر والأدب

إقبال شاعر الفلسفة الانسانية

الأستاذ محمد واضح رشيد الندوى

أنجب القرن التاسع عشر فى أواخره شاعرين عظيمين ، الشاعر إقبال بالهند ، و الشاعر العربى أحمد شوقى ، و مر كلاهما بأدوار و مراحل تعليمية وثقافية واجتماعية مماثلة ، فلم يكن فى منشئهما فارق إلا اختلاف البيئة والقومية ، و من عجيب الصدف أن كليهما كذبا النظرية القائلة بأن العلم و الفلسفة تضعفان القريحة ، و تجمدانها ، و أنه كلما ازداد الانسان علماً ودراسة وتحقيقاً ضعفت قوة وجدانه ، وشعوره ، ولذلك اختلف علماء النقد فى اعتبار أجود الشعر ، فقال بعضهم : « أعذب الشعر أكذبه » و لكن الشاعر الفيلسوف الحكيم ، إقبال الذى درس الحقوق ، و اتقن الفلسفة و استوعب جميع الكتب الفلسفية اليونانية و غير اليونانية و درس التطورات الثقافية و الحياة الغربية و نشأة العلوم فيها ، وخضوع جميع مرافق الحياة للعلوم والآلة فى أوربا حيث نشأ ، و ترعرع ، و تعلم ، وعلم ، وتثقف ، أبطل هذا الشاعر العظيم تلك النظرية القديمة عن الشعر ، و أثبت بكلامه ، و صدق تعبيره ، و قوة صلته بالحياة ، أن أعذب الشعر أصدقه ، و أن العلم والحكمة لا يضعفان القريحة وإنما يجليانها و ينميانها ، فصب علمه و حكمته ، فى شعره ، و حلى شعره بآرائه الحصيفة ، و نظريته الواقعية عن الحياة و الانسان .

و كان الفارق الآخر الذى يلمس بين إقبال و شوقى و بين الشعراء الآخرين أنهما كانا إنتاج الجامعات الغربية ، لكنهما رغم هذا العهد الطويل الذى قضياه فى حضن الثقافة الغربية ، و تربية المثقفين الغربيين ، أعرق و أصفى صلة بالشرق وثقافته ، لجادت قريحتهما بانشاد قصائد لاحياء أمتهما — وإزالة مركب النقص عن قلوب أفراد هذه الأمة الذى علق بطبيعتهم بجراء السلطة السياسية و العلمية للغرب ، لأنهما كانا يؤمنان بأن الانسان هو أشرف و أعلى من أن يستعبده إنسان ، فلكل إنسان شخصيته ، و ميزته ، وسر وجوده ، فلابد لهذا الانسان أن يكتشف شخصيته و يوقظ فى نفسه إنسانيته و لا يصبح كالانعام فيخدم مصالح الانسان الغربى .

اكتشف الشاعر إقبال أولا إنسانية الانسان الشرقى الذى وجده خاضعاً للغرب فى علمه و ثقافته ، وعقليته ، فبكى على هذه العبودية غير الطبيعية فقال فى إحدى قصائده .

« إن الشرق زاخر بالقوة و الانتاج و تبدو من هذا المحيط الهادى موجة قوية تهز العالم و تزلزل أوكار الفساد و الاستبداد .

إن المحكوم الرقيق لايوثق بأحكامه ، ولايعتمد على استحسانه واستهجانه ، و إنما الميزان هو الرجل الحر ، و الشعب الحر الذى يعيش حراً ، كريماً ، مستقلا ، بتفكيره وميوله ، فان الأحرار هم وحدهم ، أصحاب الفراسة الصادقة ، والبصيرة النافذة و إن رجل الساعة هو الذى شق بهمته الطريق إلى المستقبل ، و لم يقتنع بالحاضر »

ثم يتوجه إلى تأثير الثقافة الغربية ، فيقول :

« لقد نجح المربى الغربى ، الذى برع وفاق فى صناعة الزجاج فى مهمته ،

حتى استطاع أن يضعف الأمم التى عرفت بالنخوة و الشكيمة و الأنفـة ، فأصبحت شعوباً رخوة ناعمه ، و أثر فى الصخور و الحجارة حتى أصبحت تسيل رقة ، وفقدت صلابتها ، و استقامتها ».

إن هذا المنظر المهين الذى كان يعيش فيه الشرق فى عهد إقبال كان يزيل النوم عن عينيه ، فأنشد قصائد رائعة لاتزال تحتفظ بقوتها وتأثيرها فى الشباب .

كان الشاعر إقبال شاعر الانسانية أولا وآخراً ، ففى بداية عهده بالشعر كان يؤمن بانسانية الانسان ، فركز شعره على حياة الانسان ، وبيئته وجيرانه ، و الأجواء التى يعيش فيها ، لكنه اكتشف بعد دراسته ، و نضج عقله ، أن الانسان الذى يصوره فى شعره و يقدسه فى خياله ، هو الانسان الصناعى ، أو إنسان علم النفس ، أما الانسان الذى يستحق أن يقدسه و الانسان الذى يستحق أن يصوره هو الانسان الذى تكتمل فيه صفات الانسان ، و الانسان الذى يستوفى الانسانية و يحمل سر خلقه ، فى هذا الكون ، فلم يخلق الخالق هذا الانسان ليضيف فى خلقه شكلا جديداً من أشكال الأنعام ، أو كائناً جديداً يختلف عن الكائنات الأخرى بالنطق و الفهم ، فيخدم نفسه و ذويه كما تخدم الأنعام ، و كان فى اكتشاف سر هـذا الوجود الانسانى فضل كبير لمولانا جلال الدين الرومى الذى كان له تأثير كبير على فكر إقبال وشاعريته الواقعية ، و لدراسته فى الغرب حيث جرب الحياة الصناعية للانسان ، فيقول فى احدى قصائده فى أسرار خودى وقد بدأ قصيدة بذكر قصة أدرجها مولانا جلال الدين الرومى فى بعض مقطوعاته :

« رأيت البارحة شيخاً يدور حول المدينة ، و قد حمل مشعلا ، كأنه يبحث عن شئ ، قلت له ، ياسيدى تبحث عن ماذا ؟ قال مللت معاشرة السباع

و الدواب ، و ضقت ذرعا ، و خرجت أبحث عن إنسان فى هـذا العالم ، لقد ضاق صدرى من هؤلاء الكسالى و الاقزام ».

و يخاطب الشاعر الفيلسوف إقبال هذا الانسان الكامل فى قصيدة فارسية له فيقول :

« افتح عينك أيها الزهر النائم مثل النرجس الذى لا يطبق عينه لحظة ، و لا يعرف الكرى إليه سبيلا ، لقد أغار على وكرنا الأعداء ، و نهبوا كل ما فيه ، من كنوز و خيرات ألا يكفى هدير الحمام و صفير الأذان ، و انين القلوب والأرواح أن يوقظك ، انتبه من هذا السبات العميق الذى طال أمده و اشتدت و طأته .

اعلم أن الوطن جسد من تراب و الدين هو الروح ، و لا حياة للجسد و النفس إلا بارتباط الجسد و الروح ، انهض أيهـا المسلم ، انتبه من السبات العميق الذى طال أمده ، و اشتدت و طأته .

الغيـاث من الأفرنج الذين خلبوا العقول ، و سحروا النفوس ، الغياث من هؤلاء الذين خدعوا مرة بالرقة و الدلال ومرة بالقيود والأغلال ، و تارة مثلوا دور « شيرين » و طوراً لعبوا دور « أبرويز » لقد أصبح العالم كلـه خراباً يباباً باغارتهم و غزوهم ».

لقد أساء الذين لم يفهموا طبيعة الشاعر إقبال فى ظنهم أنه شاعر فيلسوف و أن كلامه يتركز على حياة المسلمين و أنه متطرف فى ذلك ، لا شك أنه فى المرحلة الأخيرة أخضع شاعريته القوية و قوته الأدبية و عبقريته الفنيـة لتبليغ رسالة الاسلام ، لأنه وجد إنسانه المنشود متجسداً فى الاسلام ومتمثلا فى تعاليمه ، و كان يعتقد أن غياب هذا الانسان عن مسرح الحياة و احتلال

الانسان الآلى و الصناعى الذى أنجبته الثقافة الغربية خسارة عظيمة للانسانيـة وانحراف كبير عن سر وجوده ، فانه تعلم أن يطير فى الأجواء كالطيور ، وأن يسبح فى الماء كالسمك ، وأن يتغذى كالأنعام ، وأن يقاتل ويحارب لأغراضه ، كالسباع و الوحوش ، و لكن أين ذلك الانسان الذى خلقه الله ليكون خليفة له على الأرض .

و يصور مآل الحضارة الغربية فى قصيدة الربيع فيقول :

« لقد تغير العصر و أوضاعه ، و تكشفت أسرار أوربا ، و ما كانت تضمره ، و تبيته للشرق حتى أصبح فلاسفتها و دهاتها و زعماؤها فى حيرة من أمرهم ، لقد أفلست السياسة الأوربية ، و أخفقت أساليبها القديمة و أصبح العالم يبغض الامارة و الملوكية ، و ثار المجتمع على الأفراد و السلاطين لقد انتهى دور الرأسمالية والثراء الفاحش ، وانتهت هذه المسرحية التى مثلها الملوك وأبطال ألف ليلة وليلة ، لقد تخطت اليقظة العالمية إلى شعوب معروفة بالكسل و السبات العميق ، و تدفقت عيون جبال همالايا ، و تهيأت جبال سينا ، و فاران لاشراق جديد »

و يمقت الشاعر حياة الكسل و التعاسة التى وصل إليها الشرق فيقول :

« إن الرزق الذى يفقد الأبى الكريم كرامته ، و يرزأه فى حريته وشرفه سم زعاف ، إن القوت المقبول ، هو الذى يظل معه الرجل موفور الكرامـة ، مرفوع الهامة ازهد فى أبهة السلاطين ، و اعرف نفسك و احتفظ بقيمتها و كرامتها ، وأن السجدة التى هى جديرة بالاهتمام هى السجدة التى تحرم عليك كل سجدة لغير الله »

إن هذا العرض الوجيز لبعض أفكار الشاعر إقبال يوصل الدارس إلى أفق جديد للانسانية ، و يكشف أبعاداً جديدة لحياة الانسان ، فانه فضح فى

قصائده الرائعة التى أنشدها لتبيين أسرار الذات ، و شرف الانسان و هبوطه إلى الحضيض لأنه نسى رسالته ، و ابتعد عن نقطة إنسانيته الحقيقية ، و فضح مكايد أعداء الانسانية الذين يرددون كلمة الانسانية والانسان لاستغلال الانسان و تضليله .

إن الشاعر إقبال هو الصديق الحقيقى للانسان ، إنه لا يخدر الانسان كما يفعله الشعراء الآخرون بتفضيله ، و ذكر صفاته ، و محامده ، وإنما يهيجه ليحتل مكانته الأصيلة فى الحياة ، ويتصف بالمثل العليا ، ويتولى منصب القيادة ، وينال الشرف الذى ميزه الله تعالى به على سائر مخلوقاته ، ويحذره عن صيرورته آلة جامدة صماء .

و يخشى الشاعر إقبال أن الانسان الحقيقى أو الانسان الكامل إذا كان بعيداً عن تولى دوره القيادى فان الانسانيه ستتيه وتضل فى ترهات الحياة وتصل إلى نقطة الانهيار الكامل ، ففى مصلحة الانسانيـة أن يستيقظ الانسان الحقيقى و يتولى دوره فى الحياة ليأتى بمجتمع إنسانى صميم إلى حيز الوجود حيث يكون كل فرد من أفراد المجتمع نموذجاً للانسانية الخالصة ، و صورة للعدالة والاخاء والحب ، و الحرية عن عبودية الانسان (١) .



(١) مع الشكر للاذاعة العربية دهلى .

نظرة محمد إقبال إلى العلوم و الآداب

الأستاذ السيد أبو الحسن على الحسنى الندوى

للدكتور محمد إقبال آراء حصيفة فى العلوم و الآداب و الشعر ، هى عصارة تفكيره و تجاربه . منها ، أن الأدب موهبة كبيرة من مواهب الله ، و قوة عظيمة ، يحدث به صاحبه إنقلاباً فى المجتمع ، و ثورة فكرية ، يضرب به الأوضاع الفاسدة الضربة القاضية ، و يشعل القلوب حماسة وغضباً ، ويشعل البلاد ناراً و ثورة ، و يملأ النفوس قلقاً و اضطراباً ، و تذمراً من الشر ، و تطلعاً إلى الخير ، فلابد أن يكون فى قلم الأديب والشاعر التأثير الذى كان فى عصا موسى ، و أن يؤدى رسالته فى العالم ، و كل أدب استغل لجمع المادة أو إرضاء الأغنياء و الأثرياء أو إثارة الشهوات ، أو على الأقل كان أداة للهو و التسلية ، و التـذوق بالجمال و التغنى به ، فهو أدب ضائع مظلوم ، استعمل لغير ما خلق له ، ولغير ما وهب له . يقول فى بيت : « أنا لا أعارض التذوق بالجمال و الشعور به ، فذلك أمر طبيعى ، و لكن أى فائدة للمجتمع من علم لم يكن تأثيره فى المجتمع كتأثير عصا موسى فى الحجر و البحر » .

ويعتقد محمد إقبال أن الأدب لا يصل إلى حد الاعجاز حتى يستمد حياته و قوته من أعماق القلب الحى ، و يسقى بدمه .

يقول محمد إقبال هذا ، و يرى بالعكس أن الأدب فى الشرق الاسلامى قد أصبح تتحكم فيه المرأة ، فأصبح لا يتحدث إلا عنها ، ولا يتغنى إلا بها ، و لا يبحث إلا فيها ، و لا يصور إلا إياها ، و لا يرى فى الكون إلا ظلها و جمالها ، و هذه عقيدة جديدة فى « وحدة الوجود » التى يمكن أن

تسمى « الوجودية الأدبية » . و كان الأدب العصرى ينادى بلسان حاله (لا موجود إلا المرأة) أو (لا موجود إلا الفتاة) . يقول محمد إقبال : « أسفاً للشعراء و الرسامين و كتاب القصة فى بلادنا ، لقد استولت على أعصابهم المرأة » . ولا شك أنه تصوير صادق للاتجاه الأدبى العام فى الشرق الاسلامى واندفاع الأدب المتهور وراء المرأة ، وهيامه بها ، وإعراضه عما سواهما .

و له فى الفلسفة و علوم الحكمة كذلك رأى خاص . فهو يرى أن الفلسفة لا تعيش إلا بالجهاد والتضحية ، وأن الفلسفة التى تقتصر على الدراسات والبحوث العلمية ، و تتلهى بالمناقشات اللفظية ومباحث ما بعد الطبيعة ولا تدخل فى صميم الحياة و لا تتعرض للمجتمع ، و تعيش فى العزلة عن العالم ، إنما هى فلسفة منهارة لا تستطيع أن تعيش . يقول فى بيت : « إن الفلسفة التى لم تكتب بدم القلب فلسفة ميتة أو محتضرة » .

و قد انتهت به دراسته للفلسفة ، وتوفره على مطالعتها ونقدها ، والتفكير الطويل العميق ، إلى إخفاق الفلسفة فى حل مشاكل الحياة ، وإنها صدفة لامعة خالية من اللؤلؤ ، وهو بمعزل عن الحياة والكفاح ، لا تساعد البشر ولا تمنحهم دستوراً للحياة ، و إن هو الذى ينظم المجتمع ، و ينور الطريق ، و يقدم دستوراً للحياة ، و إن سيدنا محمداً ﷺ هو المصدر الوحيد الذى يستفاد منه هذا العلم . عرف الشاعر صديقاً له من الهاشميين قد أثرت فيه الفلسفة تأثيراً كبيراً ، و تزلزلت عقيدته الاسلامية . فكتب إليه محمد إقبال قصيدة ، يقول : « أنا رجل كما تعرف ، أنتهى فى أصلى إلى سومنات (المعبد الوثنى المعروف فى الهند) و كان أبى من عباد اللات ومناة ، و إن أسرتى عريقة فى البرهمية ولكن يجرى فى عروقك دم الهاشميين ، وتنتمى إلى سيد الأولين والآخرين ، و قد امتزجت الفلسفة بلحمى ودمى ، و جرت منى مجرى الروح . أنا ، و إن

كنت لا أحسن شيئاً ، فلا شك إنى نزلت فى أعماق هذه الفلسفة ، و تغلغلت فى أحشائها ، وبعد ذلك أقول: إن الحكمة الفلسفية ليست إلا حجاباً للحقيقة ، و إنها لا تزيد صاحبها إلا بعداً عن صميم الحياة ، و إن بحوثها و تدقيقاتها تقضى على روح العمل . هذا « هيجل » ، الذى تبالغ فى تقديره ، إن صدفته خالية من اللؤلؤة و إن نظامه ليس إلا وهماً من الأوهام. لقد انطفأت شعلة القلب فى حياتك أيها السيد ! وفقدت شخصيتك ، فأصبحت أسيراً « لبرجسان » ، إن البشرية تريد أن تعلم : كيف تتقن حياتها و كيف تخلد شخصيتها ، إن بنى آدم يطلبون الثبات و يطلبون دستوراً للحياة ، و لكن الفلسفة لا تساعدهم فى ذلك . بالعكس من ذلك ، إن المؤمن إذا نادى الآفاق بأذانه ، أشرق العالم واستيقظ الكون . إن الدين هو الذى ينظم الحياة ، و إنه لا يكتسب إلا من إبراهيم ومحمد ﷺ ، فعليك أيها السيد ! بتعاليم جدك ﷺ . إلى متى يا ابن على ! - رضى الله عنه - تقلد أبا على (ابن سينا) ، إذا لم تكن بصيراً بالطريق فالقائد القرشى (يعنى رسول الله ﷺ) خير لك من القائد البخارى (يعنى ابن سينا) » .

و بالاجمال إن الدكتور محمد إقبال يرى ، أن نظام التعليم الحديث قد أخفق فى أداء رسالته و أخفق فى إنتاج جيل جديد يحسن الانتفاع بمعلوماته ، ويحسن استعمال مادته العلمية و ثروته الثقافية ويضع كل شئ فى محله ، ويعيش حياة سعيدة مطمئنة . بالعكس من ذلك ، وجد جيل مثقف ثقافة عالية ، يعرف عن مجاهل إفريقية و القطب الشمالى ، وعن حياة الحيوان والنبات شيئاً كثيراً ، و لا يعرف عن نفسه إلا قليلا . و يسخر التجارة و الكهرباء ، و يسخر الطاقة الذرية فى الزمن الأخير و لا يملك نفسه و قوته . و يطير فى الهواء كالطير ، و يسبح فى البحار كالسمك ، و لا يحسن أن يمشى على الأرض ، و ما ذلك إلا لأن التعليم قد اختل ميزانه ، وفسد مزاجه . و كيف يستقيم الظل و العود أعوج ؟! يقول فى قصيدة : « من الغريب أن من اقتنص أشعة

الشمس ، لم يعرف كيف ينير ليله و كيف يصبح . وأن من بحث عن مسالك النجوم و طرقها ، لم يستطع أن يسافر فى بيداء أفكاره . و من عكف على الألغاز يحلها و يشرحها لم يستطع أن يميز النفع من الضرر » .

و فى الأخير إن الدكتور محمد إقبال يتمنى للاسلام جيلا جديداً . شبابه طاهر نقى وضربه موجع قوى ، إذا كانت الحرب فهو فى صولته كأسد الشرى ، و إن كان الصلح فهو فى وداعته كغزال الحى ، يجمع بين حلاوة العسل و مرارة الحنظل . هذا مع الأعداء و ذاك مع الأولياء . إذا تكلم كان رقيقاً ، و إذا جد فى الطلب كان شديداً حفياً . و كان فى حالتى الحرب و الصلح عفيفاً نزيهاً . آماله قليلة ، و مقاصده جليلة غنى القلب فى الفقر ، فقير الجسم و البيت فى الغنى . غيور فى العسر رؤوف كريم عند اليسر . يظمأ إن أبدى له الماء منة ، و يموت جوعاً إن رأى فى الرزق ذلة . إذا كان بين الأصدقاء كان حريراً فى النعومة ، و إن كان بين الأعداء كان حديداً فى الصلابة . كان طلا و ندى ، تتفتح به الأزهار و ترف به الأشجار ، وكان طوفاناً تصطرع به الأمواج و ترتعد له البحار . إذا عارض فى سيره صخوراً و جبالا ، كان شلالا ، و إن مر فى طريقه بحدائق ، كان ماءً سلسالا ، يجمع بين جلال إيمان الصديق ، وقوة على ، وفقر أبى ذر ، وصدق سلمان ، يقينه بين أوهام العصر ، كمصباح الراهب فى ظلمات الصحراء . يعرف فى محيطه بحكمته و فراسته ، و بأذان السحر . الشهادة فى سبيل الله أحب إليه من الحكومات والغنائم ، يقتنص النجوم ، و يصطاد الأسود ، و يبارى الملائكة ، و يتحدى الكفر و الباطل أيما كانا . يرفع قيمته و يزيد فى سعره ، حتى لا يستطيع أن يشتريه غير ربه . شغلته مآربه الجليلة ، و حياة الجد والجهاد عن زينة الجسم و التأنق فى اللباس . و شعر بانسانيته ، فترفع عن تقليد الطاؤوس فى لونه ، و العندليب فى حسن صوته » .